سقوط الحاجز النفسي والدخول إلى التاريخ من جديد

د. خالد الطراولي*

■ انتهت الحرب الغاشمة على لبنان ووضعت أوزارها أو تكاد، وسوف تنالها كسابقاتها التحاليل والتفاسير السياسية والعسكرية على السواء. لعل الخبراء العسكريين قد أفسحت لهم هذه الحرب على مفاجآت وأحداث سوف تنال النصيب الأكبر في التخطيطات المستقبلية للحروب وفي المدارس العسكرية وفي الصناعات الحربية القادمة.

لن يختلف اثنان أن عديد المسلمات العسكرية قد سقطت في هذه الحرب، في مستوى التخطيط والأسلحة المستعملة، والتي أثبتت دون أدنى شك أن معادلة الانتصار أصبحت جدّ معقدة، ولم تعد تقتصر فقط على التقنيات الحديثة والمتطورة وكثرة الجند والذخيرة، ولكنها أصبحت تلامس العدد والعدة والتكوين الفردي وما يصحبه من استعداد روحي ونفسي، وما يتبعه من أهداف تتجاوز منطق الجغرافيا العسكرية المحدودة، ليطأ بنا معاقل التاريخ والحاضر، والذي يصبح فيه لبنان جزءا صغيرا من عالمية حضارية واسعة، تشكل الأحداث الأخيرة بداية إرهاصات تحول كبير وغير منتظر.

منهجيات العجز وثقافة الهزيمة!

يروى عن ستالين قولة اكذب ثم اكذب حتى يصدقك الناس، ويبدو أن هذه الطريقة في التعامل مع الآخر، قد مثلت منهجية استعملتها السياسة الإسرائيلية في إيصال خطاب الهيمنة والقوة والجبروت، حيث اقتنع الجميع غربا وشرقا بأسطورة الجيش الذي لا يقهر، ولعل الاقتناع وصل حتى أصحاب القرار الإسرائيلي، فكانت هذه المقولة طافحة في كل الخطابات والأقوال والاستراتيجيات حتى أصبحت مسلمة وبديهية غير قابلة للنقاش. اقتنعت أمريكا بصحتها وبنت عليها استراتيجيا كاملة جعلت من إسرائيل راعية لمصالحها وحارستها الوفية في منطقة غاب فيها الصديق والرفيق، وزادها المحافظون الجدد تركيزا بعد أن طعّموها ببهارات دينية متطرفة... واقتنع المجتمع الدولي بها وأضحى لا يتورع عن حماية الظالم وإيجاد كل التبريرات لأفعاله وقراراته، ولو كان الظلم بواحا والمظلوم رضيعا أو عجوزا، فكان الحياء واللامبالاة أو الخوف مبررا لمساندة عمياء دون أي وازع أخلاقي أو قيمي... واقتنع العرب وتدحرجت سلوكياتهم ومواقفهم الرسمية نحو «سلام» عاجل وبأي ثمن، وعلى حساب عديد الثوابت بدعوى العجز عن مجاراة الخصم الذي أضحى لا يقهر ولا يهزم. ولو راجعنا كل القرارات والمفاوضات والاستراتيجيات التي بنى عليها النظام الرسمي العربي أبجدياتها، لوجدناها تنطلق من هذه المسلمة، مما جعل كل مقاربة للمواجهة تنبثق من منهجية استسلام وواقعية مغشوشة وبراغماتية غير مدروسة.

ولم تبق هذه الممارسة داخل القصور ومراكز القرار ولكنها نزلت إلى الشارع وأحبطته وأفقدت آماله ونزعت أحلامه، فظهرت الكثير من ثقافة الانسحاب، والتقوقع على الذات، في أقصاها واللامبالاة في أدناها، وبقي الشارع العربي والإسلامي بعيدا عن الحراك ولو أن ومضات تشتعل من هنا وهناك يقع قمعها في المهد، غير أنها لم تمثل أبدا مسارا سليما واعيا ومتواصلا، ومبنيا على ثقافة مغايرة وتشكلٍ جديد ونهائي لعقلية فرد ومجموعة.

المحطة الانتقالية

لا يسع المتصفح لورقات تاريخنا القديم والمعاصر إلا أن يلاحظ أنه غلبت على محطاته السقوط والشهود كما هي حالات كل الحضارات، غير أن ما يسترعى الانتباه خاصة، أن بين هذه الأحوال فترات تشكل مرحلة انتقالية نحو العلو أو نحو النزول، وتمثل هذه المرحلة الأساس في توجه خط الحضارة أو التحضر نحو التشكل الإيجابي أو السلبي. هذه المرحلة الانتقالية الهامة هي محطة نفسية ثقافية تسعى إلى تشكيل عقلية الثقة في النفس والكفاءة والنجاح والانتصار على مستوى الفرد والمجموعة، وتكرس الثقافة الحامية لذلك والبانية لأسسها. وهو ما يؤكده النص القرآني على دفعتين، دفعة إيجابية تمثل الانتقال النفسي نحو الصعود والشهود «إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم» (الرعد 11) ودفعة سلبية تمثل الانتقال النفسي نحو السقوط والانهزام «ذلك بأن الله لم يك مغيرا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم» (الأنفال 53).

إن التغيير الذاتي كما يقول عماد الدين خليل «عملية شاملة تغطي الطاقات البشرية كافة، عقلية وروحية وأخلاقية وسلوكية وجسدية، وأي تجزيء في الرؤية أو الموقف يقتل المحاولة في المهد، ولكننا بتأكيدنا على التشكل أو التغيير العقلي إنما نعتمد ضرورة منهجية تضع في الاعتبار دوما سلما للأولويات فتبدأ بالأهم فالمهم فالأقل أهمية»... (حول إعادة تشكيل العقل المسلم، كتاب الأمة، 1982 ص 141)

دروس من التاريخ القديم

وفي التاريخ القديم لهزائمنا ودون الإبحار في الأمثلة والتعمق في التأكيد لضيق المقام، تتجلى بداية التجربة الإسلامية الأولى في عهد الرسالة حيث حضرت هذه النقلة النفسية التي أحدثها المقدس القولي والفعلي لدى مجموعة صغيرة لا يمكن بمنطق العقل السليم أن تخرج مهاجرة وتستوطن أرضا غير أرضها وتذهب في حرب ضد جماعة يفوقونهم عددا وعدة بالأضعاف فكانت بدر وكان الانتصار وكانت الدولة.

هذه الحالة الإيجابية لتشكل العقل المسلم في هذه المحطة الانتقالية اصطحبتها نقلة نفسية وثقافية تمثلت في تكون روح الانتصار وثقافة المقاومة والصمود لدى الفرد والمجموعة. وسوف تتعدد هذه النفسية المجاهدة والمشبعة بروح البذل والعطاء والثقة في النفس طوال عهد الرسالة والصدر الأول من الإسلام، وما غزوة مؤتة وما تبعها من فتوحات إلا نماذج تصطبغ غالبا بتفوق مادي رهيب في الضفة المقابلة، وتميز نفسي وثقافي متضخم في جانب أصحاب الدين الجديد.

في مقابل هذه المرحلة الانتقالية التي سبقت بسنين إرهاصات العالمية الإسلامية الأولى، ومثلت دفعة إيجابية للتشكل العقلي والنفسي، تواجهنا تجربة الأندلس كنموذج سلبي ولانطلاق العد العكسي لبداية النهاية لهذا العرس الإسلامي الذي طال قرونا وغطى بحضارته وثقافته كل أرجاء المعمورة. لقد مثلت حالة الأندلس في أيامها السوداء وحلول غروبها المحطة الانتقالية نحو العدم، حيث هيمنت بعض المواقف والممارسات السلبية التي شكلت إرهاصات النهاية ونواقيس الفناء. فقد هيمنت ثقافة الخوف والانسحاب وتشكلت عقلية الهزيمة، وتضخم العدو في المخيال الشعبي الإسلامي قبل أن يتشكل حقيقة على أرض الواقع. فتزعزعت الثقة في النفس ولاذ الفرد والمجموعة بثقافة سلبية منهزمة، سبقت الارتداد والفرار والسقوط.

لقد كانت ظاهرة ملوك الطوائف في الأندلس (27 إمارة) تعبيرا سياسيا واجتماعيا لمشهد عام منسحب ومهزوم ومشتت، حتى وصل الأمر أن يحكم أحد ملوكها ابن الأحمر مملكة غرناطة باسم ملك قشتالة الإسباني ويؤدي له الجزية في مقابل بقائه في السلطة، وأعانه بالجند والقوة لحصار إشبيلية المسلمة وسقوطها كما يروي ابن خلدون. ولم تقف ثقافة الهزيمة عند باب القصر بل دخلت المجتمع كافة واستوطنت العقول والوجدان، حتى إن بعض المسلمين لبس الحداد حزنا على مقتل الأسبان في إحدى المواقع بعد وفاة ملكها مجاملة وخوفا!

لقد غابت ثقافة الممانعة والمقاومة وتخلى الفرد والحاكم والرعية عن دورهم الاجتماعي فوقع المحظور وسقطت الأندلس رغم تواجد لامس الألفية من الزمن. إن هذه المحطات الخطيرة في حياة الشعوب والمجتمعات إذا لم ينتبه إليها في الإبان، فإنها تزداد غوصا وتركيزا وتصبح من المسلمات في ذهنية الفرد، وتصير مقاومتها مغامرة أو من المستحيلات، وكلما طالت المدة صعبت معها الممانعة والعودة.

من الكمّ إلى الكيف أو تشكّل ثقافة وعقلية الممانعة.

أما في حاضرنا فإن قرنا كاملا قد توارى وهو يحمل في بعض ثناياه ثقافة الهزيمة والانسحاب، وفي مراجعتنا للمواجهة التي جمعت العرب بإسرائيل منذ النكبة، والتي شكلت ولا تزال مكوّنا أساسيا في وجودنا وسلوكنا ومواقفنا ونماذجنا في التنمية ومناشط النهوض، نلاحظ تشكل عقلية الانسحاب والخوف التي تزداد تمكنا إثر كل حرب عربية ـ إسرائيلية، حيث تمكنت في عقلية الفرد والمجموعة صورة نمطية للجندي الإسرائيلي الذي لا يقهر وللدولة المهيمنة التي لا تغلب، وللواحة الديمقراطية الوحيدة التي تعيش بين أخلاب برابرة محيطين بها. فكانت مواقفنا هزيمة واستراتجياتنا هزيمة، وأصبحنا ندعو إلى السلام بمنطق الاستسلام، وندخل مناطق ونمضي المعاهدات وشعارنا سلّم سلّم...

لقد مثل الانسحاب الإسرائيلي الأول عن لبنان في الثمانينات، المسمار الأول الذي يُدقّ في نعش هذه الثقافة المنسحبة، وبداية العد العكسي نحو تشكّل عقلية مغايرة تناقض الأولى وتبني سلوكا جديدا متميزا. كان هذا الانسحاب بداية مسلسل كونت أطرافه إقامة الجدار العنصري في فلسطين، ثم الخروج من غزة، ثم بالهزيمة الأخيرة في الجنوب اللبناني. ولقد أنشأت الانتفاضات الفلسطينية المتكررة والمتواصلة محطات مصيرية في تشكل هذا المسار الجديد وتأكيد تجذره.

إن تغير المسارات الإنسانية في كل مظاهرها الإجرائية والحضارية في بلوغها نقطة الصفر التي تنعكس بعدها الظاهرة من السلب إلى الإيجاب أو العكس، يتطلب خضة أو هزة تزعزع المسلمات وتستنهض النفوس وتخطّ توجها آخر في عقلية الفرد والمجتمع وفي ثقافته، تؤدي لاحقا إلى تغير تدريجي في سلوكياته ومواقفه. فتكون الهزة بداية الدخول في هذه المرحلة الانتقالية التي تكسر الحاجز النفسي لدى الفرد والمجموعة التي أسسته المرحلة السابقة وتقوم ببناء وجدانهم ونفسياتهم وثقافتهم وحتى مخيالهم. ولقد مثلت الكثير من الحروب هذه الدفعة نحو تغيير مسارات حضارات ودول في التاريخ القديم أو القريب.

وما وقع هذه الأيام هو مواصلة مسار قد بدأ كما أسلفنا منذ الثمانينات في مغادرة إسرائيل لجنوب لبنان، غير أنه تميز بوضوح هذا التوجه وتأكيده. إن هذه النقلة التي أحدثتها الأوضاع الحالية على مستوى الأمة العربية والإسلامية من إسقاط حاجز نفسي رهيب، ظل يهيمن على دوافع الفرد العربي والمسلم وعلى أحلامه وآماله، إن هذه النقلة النوعية تشكل في نظري أهم انتصار يتجاوز منطق الكمّ الذي وقفت عنده الكثير من الأقلام والمواقف، ليبرز بكل قوة منطق الكيف الذي لا يقف عند ضفاف لبنان وما جاورها، ولكنه يرمي بردائه الفضفاض والحالم والواعد على كل أصقاع البلاد العربية والإسلامية، ويدفع بها مجددا إلى الدخول في التاريخ من باب كتب على يافطته : هنا تبدأ لحظة الصفر الحضارية وتتشكل عناصر عالمية إنسانية جديدة.

* رئيس اللقاء الإصلاحي الديمقراطي (تونس)
www.liqaa.net ktraouli@noos.fr

الخطاب السياسي: ضرورات ضبط الأسلوب المسفّ في الخصومة

د. الصادق الفقيه*

■ يقول مبتدأ الفلسفة ان الانسان لا يستطيع التفكير خارج اطار اللغة. لهذا، يحتل مشكل تحديد المفاهيم مكانة هامة في العلوم الطبيعية. وهناك ميل كبير نحو المزيد من الدقة في ضبط المصطلحات، وسعي جاد نحو محاولة استبدال الكلمات الغائمة والعائمة في المنطق الصوري برموز محددة تحديداً جيداً، تجنباً للحراك غير المنطقي للمعاني، أما في لغة السياسة فالأمر عكس ذلك تماماً حيث تهيمن باستمرار أشد أنواع الخلط اللفظي سوءاً، وتضطرب المعاني و«يتشتت» الرأي و«تتغبش» الرؤيا. وما أسهل التمثيل على هذا الادعاء، اذ لا يحتاج المرء لأكثر من خطبة سياسي واحد ليستجلي انفلات العبارات عن مرابع رموزها ومرابط معانيها وحقيقة مقاصدها.

ويتعلق الخبر بأحكام قواعد المنطق، ونسق العبارات الدالة على حدود الرمز وجوهر المعنى الموصل الى قرار الموضوعية. ولعل أحسن طريقة، ان لم تكن الطريقة الوحيدة المضمونة، للتوصل الى حد أدنى من الموضوعية في الخطاب السياسي، هي تجميع التعاريف المختلفة للمبادئ والشعارات لاستخلاص نموذج خطاب مثالي، نتصوره من حيث قيمته المعرفية وميزته القيمية وآلياته الأداتية، التي يحسن معها نتاج الفعل. وهنا، فانه بدلاً من المطالبة الوهمية بموضوعية مطلقة، يعجز عن مقاربتها الخطاب السياسي، نقدم نوعاً من المساومة، بمقابل مرضى من الذاتية المقبولة جماهيرياً يتحقق بها الأداء الوظيفي لرسالة الخطاب العام، دون اخلال بالمضامين الموضوعية.

ومن المثير للانتباه أن تحتفي كل القوى السياسية السودانية بالسلام، وأن يجهش الخطاب السياسي، في الوقت ذاته، بالبكاء على السلم الأهلي المضيع بغفلة السياسة وتخاصم السياسيين، وأن تفشل المعاني المرسلة بواسطة الشعارات المرفوعة في استنهاض الارادة الوطنية لبلوغ مراميها، وأن تتراكب المشكلات وتتداخل عناصرها بتعقيدات تجنبها امكانية الحل. وهنا يصبح من حقنا، بل من واجبنا، أن نخشى على السودان، ونظامه الاجتماعي وسلمه الأهلي، ومستقبل الدولة فيه، من التعقيدات الداخلية واستدعائها للتدخلات الخارجية المتصاعدة في أدق الشؤون وأخص الخصوصيات.

وقد لا نملك حلاً سحرياً يفض هذه المعضلات، أو القاء خطاب سياسي بشأنها تنفلت فيه الاشارات وتتزاحم وتتناقض المعاني، ولكننا نحاول، في كل ما نكتب، أن نضيء مسالك الحديث عن قيمة السلام، في الدائرة الداخلية السودانية، بحيث تكون هذه المسألة حقيقة من حقائق الواقع السياسي والاجتماعي والثقافي والاقتصادي، وثابتة من ثوابت الراهن والمستقبل، كما كانت في بعض مراحل التاريخ. فهناك ضرورة أن يتصالح المجتمع مع نفسه، بطريقة سلمية وحضارية، تتجسد في نظام أخلاقي يتأسس على جماع القيم الكلية للشعب، وفي نظام اقتصادي معاش على أرض الواقع، يتوفر على العدالة والمساواة وتكافؤ الفرص، وكذلك في نظام ثقافي متسامح، واجتماعي متضامن، وسياسي متراتب بقسط القانون. لأن السلام، وقوامه السلم الأهلي، هو تسالم الارادات الوطنية، وانصهار مصالحها في الكيان الاجتماعي الوطني العام.

وكشرط ابتداء، لا بد أن نخرج من حالة التناحر والاقتتال، وأوهام التميز والتفرد، أو ما يقابلهما من ادعاء «الدونية» و«التهميش»، لأن كلا الاحساسين يمثلان ظواهر مرضية قاهرة لعدل سنة التسامح والتراضي. وعلينا أن نعلن من بعد، وبصوت عال وعقل ناضج، ضرورة أن نتجاوز معاناتنا الطويلة، بالوعي الكامل لتحديات راهننا، وآمال مستقبلنا. فالسلام جهد متواصل يشترك الجميع في صنعه، ويعملون على تطوره ورعاية استمراريته واستدامته. لأن التطلع لآفاق البناء الحضاري يتطلب منا بلورة أفكار حية وناهضة، تساهم في بناء السودان الجديد بكل فضائل الشعارات المنصوبة والمصوبة لهذا الغرض.

وفي هذا دعوة للجميع لتحري الدقة ونشدان الموضوعية في الخطاب السياسي، والالتزام بقواعد التعايش المشترك، والالتزام بمقتضيات الوفاق الوطني. لأن هذا هو الخيار الصحيح الذي ينعم فيه الجميع بالطمأنينة والأمن والأمان، وهو السلام العادل بكل ما تعني هذه العدالة من قيم ومبادئ وأخلاق، وبرامج تنداح وتتوزع بها فضيلة المشاركة على الأصعدة كافة، ونظم ومؤسسات تتنزل بها المساواة على الواقع المعاش، واستراتيجيات ترتفع بها الهمم الى المثل والطموحات العليا للمجتمع.

ان أي ناظر الى الأخطار والمشكلات التي تحيق ببلادنا، وتأمل ما ينفعل به الخطاب السياسي، سيكتشف، بالخصم والاضافة، حجم الهول الذي يواجهنا، ويتعلق بسلامتنا الجسدية والمادية، ومضموننا الثقافي والقيمي ومصالحنا الاجتماعية والاقتصادية، وحياضنا ممثلة في الأرض ووحدة الدولة، في أخص ما لها من خصائص وفي أشمل ما لها من أطر. كما سيدرك البصير حجم الاستهداف الذي يتناول دورنا في المحيط الاقليمي والعالم، اذ يراد لنا أن نكون مجموعة من البشر تتناحر بلا هدف، وتقتتل على كل صعيد، وتبقى كماً مهملاً لا دور لها ولا ريادة في صنع هذه المرحلة من التاريخ الخاص، والاسهام المتوقع، بقدر، في التاريخ البشري العام.

وكالعهد دائماً، لا نود أن نقحم جميع السياسيين في زمرة واحدة، أو نلقي بجملة خطبهم في سلة مهملات الخصومة. فمن السياسيين من يزن المعنى ويضبط العبارة ويستهدف الواقع العيني بالتنظير وحنكة المعالجة. وقد كان لهؤلاء في ضرورة السلام أقوال محكمة مشهورة، غير أن بعضهم يقبل السلام وفوائده السياسية بغير التزام باسهام في توطيد عروته، أو ابانة مناقبه في خطابه السياسي لجمهوره. وهناك بالقطع عين كره البعض التي تبدي المساوي، ولن يقنعها جهد المخالفين حتى ولو تكحل الواقع بما هو أبعد من السلام، وحدثهم الاستقرار بتنمية تطاول شواهقها عنان السماء.

وقد شهدنا كيف يجرد بعضهم الحجة دفاعاً عن كل منعرج ينعطفون اليه دون أن يتزلف البرهان بمطلب تعضيدها. لكننا نريد خطاباً نفهمه في ضوء الواقع ونبرهن عليه بأدلة عقلانية، تقبل القياس والحماية الموضوعية. وعلى سبيل المثال يعتقد الناس أن المبادئ الأخلاقية للسلام قابلة لاقامة البرهان العقلي عليها بحيثيات ذاتية، أو مقارنتها باظهار بشاعة الحرب. رغم أن التجارب التي حصدناها مباشرة بعد اتفاق سلام نيفاشا قد أنكرت الوقائع بعدها المأمول منها، أي رفضت بعض الأطراف الاقتناع بأن حالة السلام في الجنوب قابلة للبرهنة في الغرب والشرق.

ولقد كان لدعوات السلام العريضة، فضلاً عن التحرك الواسع للدبلوماسية الرسمية والشعبية، وحملة الضغوط الداخلية والخارجية، المنظمة نسبياً، أثر لا يخفى في قرار كثير من القوى السياسية الوطنية للقبول بالمشاركة لاقالة عثرات البلاد، واعادة توجيه الخطاب السياسي الى حالة اجماع مؤقت... قبول عام بالسلام مع بعض الملاحظات، ثم تكاثفت الملاحظات، واشرأبت نزعة الطرد المركزي لتبعد المواقف عن بعضها، وانفضت تحالفات، وتنادت القوى المختلفة الى خنادقها القديمة، وكأن الاجماع في السودان «سكرة» تعقبها «فكرة» يتقهقر فيها المسعى الوطني ويتراجع وقع الاقدام فيه. فقد تمت اتفاقية السلام مع الجنوب في سابقة سياسية نادرة؛ الشهادة لها؛ أنها أوقفت الحرب، والملاحظات عليها لا تسوق تمايزاً يربك الخطاب السياسي ويشل الصف الوطني بالقدر الذي حدث.

صحيح أن ظاهر نتيجة نيفاشا ينم عن كسب كبير لصالح الجنوب، وقد تضرر الجنوب من الحرب أكثر من غيره، والبعض رأى في «بروتوكولات ماشاكوس» اطاراً مثالياً لنهاية تفاوض واتفاق سلام تحكم بعده لجان الفريقين ضبط تفاصيل انزاله على الأرض. ولكن باحسان التطبيق والمعالجات الحكيمة للاختلالات والتبشير بهدف الوحدة، وقد مر أكثر من عام الآن على هذا الاتفاق، سيربح السودان به في نهاية المطاف. الا أن تردد قوى أخرى كان يشير الي حجم المعارضة وجدية الاعتراض. وكانت في الواقع تمثل وجهة نظر عريضة واسعة النطاق، لا يمكن نكرانها أو التنكر لها، لم تتوقف عند الحدث في حد ذاته، بل اعتبرت أنه يمثل ثنائية تتغاضى عن غيرها، رغم عهد أخذته أطراف، قوى التجمع الوطني الديمقراطي، وعبرت عنه بأقوى عبارات خطابها السياسي، أن الحركة الشعبية مفوضة في التعبير عنها، مما يمكن أن يؤشر على نهاية التحالفات عند أول محك اختبار.

والحال أن هذا التقدير لا ينطوي على مبالغة، اذْ أن تلك البرهة كانت تمثل أقصى مناسبات احتكاك الجنوب والشمال، والاتفاقية التي سُجلت باسم السودان واحتُسبت مواضعاتها له وعليه، بواحدة من أرفع ضمانات المجتمع الدولي منعة وحصانة وسمعة ومحافظة، خصوصاً في جانب الحراسة والمراقبة والدعم، اضطرب في تقديرها الخطاب السياسي، وتشاكست اتجاهاته. ففي حين رأى النظام أنه أوجد حلاً من حقه أن يقطف ثمرته، ظنت القوى المعارضة أن لحظة الخلاص منه قد أتت، وأن عصا الحركة الشعبية الحليفة كافية لانجاز المهمة. واجتهد الخطاب السياسي في الطرق على تناقضات الشريكين، وزودتهم الممارسة بذخيرة متجددة. ولكن الحركة صارت مستوعبة بهموم حكومتها في الجنوب وشراكتها في الشمال، وليس لها ما يمكن أن تنفقه لاسترضاء الآخرين، حتى ولو كانوا حلفاء، استهدفوا، في وقت سابق، هدم النظام أو تقويضه أو تفكيك ركائزه وثوابته، في أقل تقدير.

والمهم الآن، ليس محاسبة القائل على صحة أو خطأ قوله، وانما دعم الفاعل على صحة فعله، والبحث عن مشروع نهضوي سياسي مشترك يبرئ الجهد الوطني من عيوب الاختلاف لمجرد الاختلاف، ويأخذ بالاعتبار المأزق الخطير الذي تمر به البلاد. ولا بد لهذا المشروع أن يرتكز الى، وينطلق من، مشروع ممانعة أو مقاومة يحمي ارث الماضي وانجاز الحاضر ويدرأ الخطر عن المستقبل، ويبقي أبواب الغد مشرعة أمام كل القوى الوطنية لاستعادة زمام المبادرة واستعادة الدور المفقود للمجتمع والدولة.

ولو راعينا أشراط المشروعية، في ممارساتنا، ستأتي حقّاً فترة تؤدي فيها نتائج العديد من المبادرات الوطنية الى تعريفات جديدة للغة السياسية يقبلها الجميع. وهذا الطور قد بلغناه يوم رفضنا استمرار الاستعمار وتكاتفنا لنيل الاستقلال، لكن حديث السياسة هذه الأيام بعيد عن ذلك، فهل هناك خطاب واحد اليوم مقبول من الجميع؟ ولو غامرت الاجابة بـ«نعم»، فلن نندهش لرؤية المكانة المخصصة والمحصنة للوطن عند كل مواطن. ان هذه الاجابة لن تكون فقط مقدمة أولية للعمل الوطني في عرف الناس والسياسيين، بل ستعد بعداً من أبعاد الاقرار المبدئي بضرورات سعة المشاركة واعمارها.

وعندها، ستصبح المقولة المركزية في هذا المفهوم الكلي والعام، التي نحن بصدد مراقبتها ومتابعتها، ليست هي التضليل المقصود في الخطاب السياسي، أو الخطأ العرضي في الفعل والممارسة، بل هي تحول المفاهيم الحاكمة لفكر السياسي من خلال منظوراته الخاصة، والتي تتسق معها جملة القضايا العامة في طرح خطابه، الذي لن نجد فيه ذلك الأسلوب المؤسف المسف في الخصومة السياسية... وعلى كل حال، فاننا نرجو من ذلك تطبيقاً يعد تصديقاً للوطنية في ميدان الفكر السياسي، الذي يهتدي به الخطاب والممارسة.

* كاتب من السودان

التحالفات المؤقتة ضرورية للحلف الثابت الاستراتيجي:

وجود عراق مؤيد لامريكا ومحب لاسرائيل خرافة

باقر ابراهيم*

■ معروفة لنا حقائق اجتماع الاستبداد الداخلي، وخاصة في انظمة الحكم العربية الوطنية، مع عامل الضغط والعدوان الخارجي المتمثل بالقوى الطامعة، الامبريالية والصهيونية.

لقد افقدنا ذلك الاجتماع بين العاملين الداخلي والخارجي، في بلدان عربية كثيرة، كما في غيرها، منجزات كبرى واعادنا الى الوراء.

لكن خسارتنا الاضافية في العراق، كانت توجيه طعنة نجلاء للحركة الوطنية حين جرى شراء او ابتذال اكثرية احزابها العريقة المعروفة، التي كونت (جبهة الاتحاد الوطني)، وكانت عماد النصر في ثورة 14 تموز (يوليو) 1958 المجيدة.

لا نتوقف كثيرا عند تلك الحقبة المرة، الا بقدر اخذ العبرة منها، ثم لتلمس طريقنا الجديد. فليس من شأن المكافحين من اجل التغيير، النواح على الماضي او البكاء على الاطلال.

أنا ممن يؤمنون بأن الامم والشعوب تخلق دائما، وفي كل مرحلة، او حقبة زمنية، طلائعها وروادها وقادتها. وامامنا الان مأثرة العراق الجديد ومقاومته الشعبية الباسلة وقادتها، التي اذهلت خصومنا وافرحت اصدقاءنا.

مقابل خسارة حركة النضال التحرري ومن اجل التقدم الاجتماعي، لشطر من مثقفيها، جرفتهم موجات الردة، وصاروا سماسرة للغزاة يرقصون فوق مأساة العراق المدمر، برز الدور الرائع لرواد ثقافة التحرير المبدعين الذين قبلوا معاناة الاضطهاد والتشرد والتجويع، دفاعا عن كرامة شعبهم المهان ووطنهم المذل، فكانوا بحق مفخرة جيلنا.

اني احيي كل حزب، قديم او جديد، وكل منظمة وهيئة وشخصية سياسية ودينية وعشائرية، ثورية او اصلاحية، انخرطت في مقاومة الاحتلال الغاشم، بجميع وسائل المقاومة المسلحة او السلمية، المادية او المعنوية.

ولا بد من الانتباه الى حقيقة ان هذه القوى الشعبية الواسعة المناهضة للاحتلال، والتي تشمل الوطن كله، تتكون الان من بعض قوى قديمة، معروفة واصيلة، الى جانب قوى كثيرة، غير معروفة تماما، او غير مجربة تماما، او هي ذات مواقف وسطية او مترددة. فبعض هذه القوى تتخذ من الدين او الطائفة او العشيرة، اسما، ومن المقاومة للاحتلال، موقفا وفعلا، بهذا القدر او ذاك.

وما دامت هذه القوى، تنخرط في مسيرة معارضة الاحتلال، وما دامت تمتلك جمهورا عراقيا معينا، يطمح للخلاص ويسعى من اجله، فلا بد من وضعها في حسبان التأثير الايجابي، تأييدا ودعما للصالح فيها، ونصحا وتنبيها لتجنب المضر الطالح في فعالها.

لا بد ان نهتم بالطبع، بتحالف قوى التحرير والتغيير الاصيلة، الثابتة والواضحة. لكننا، خصوصا عند المحن وامام الخطر الداهم، كما نحن فيه اليوم، ملزمون بالبحث والامساك بكل حليف، او تحالف، مؤقت وحتى القلق.

ما يحتاج الى علاج لشفاء الحركة الوطنية العراقية، ان صفوفها ما تزال تضم شخصيات او جهات، اعتادت الخطاب السياسي المتخشب القديم، بل ادمنت عليه، بعد ان ولى زمانه.

فذلك الخطاب القديم، يدعي الرفعة والعصمة للفريق المدعي، ويرفض قبول الاخر الا وفق مقاساته وبموجب شروطه. ولا يتورع خطباؤه، عن مواصلة دعاوى عانينا منها كثيرا بالامس، وادعيناها نحن جميعا بالامس، حين كنا ننسب لانفسنا وحدنا، تمثيل الشعب، والتعبير عن ارادة الشعب.

لكن المكافحين من اجل التحرير الوطني والتغيير الاجتماعي، وخاصة روادهما، يتميزون بصفات عديدة، لعل ابرزها، القدرة على التجميع وتوحيد القوى. هذا ينطبق على الشخصيات كما ينطبق على الاحزاب او المؤسسات. وهو ينطبق على تجميع القوى داخل العراق، مثلما ينسحب على الرؤية والموقف من التحالفات على الصعيدين العربي والاسلامي.

لذلك تتزايد الحاجة لتوحيد قوى النضال، بعيدا عن المراهنات على هذه الجهة، او الاسقاطات لجهة اخرى.

ان العقيدة الثابتة للمحتلين ولانصار الاحتلال، تهتم اولا في غرس الشقاق في ارضنا، وبين مكوناتنا العراقية، التي تآخت منذ الوف السنين.

لا نجاة لنا، ولا ضمانة لحفظ مستقبلنا، سوى ان نحطم سلاحهم، ونرد كيدهم الى نحورهم. وحين نتوحد فسنرحل وينبغي ان نرحل ونصدر الخلاف والصراع الى ارضهم، ووسط جمعهم، الذي لم يؤلفه سوى الحقد على كرامتنا الوطنية، سوى الطمع والجشع في خيرات ارضنا، سوى التصميم على مسخ انتمائنا وهويتنا، وبالتالي ان نفقد انسانيتنا، وان نكون جزءا لينا مطواعا، من شرق اوسطهم الجديد، الامريكي ـ الاسرائيلي.

لتلبية الحاجة الماسة لتوحيد اكبر وسط ممكن من الشغيلة، ومن قوى الشعب، نستذكر نصيحة القائد الثوري لينين حين قال:

«لا يمكن ان يخاف من التحالفات المؤقتة ـ ولو مع اناس لا يركن اليهم ـ الا الذين لا يثقون بانفسهم.

وانه من غير الممكن لاي حزب سياسي، ان يعيش بدون مثل هذه التحالفات.. ولكن الشرط الذي لا بد منه لهذا التحالف، هو ان تتوفر الامكانية التامة للديمقراطيين الاشتراكيين ليبينوا للطبقة العاملة تناقضها مع البرجوازية».

بالطبع لنا ان نترجم التحفظ الذي تنتهي به نصيحة لينين، وفق ظروفنا العراقية الراهنة، كي نقول بأن من شروط التحالف، ان تتوفر الامكانية لقوى التحرير والتغيير، اليسارية والقومية والاسلامية، لتبين لشغيلة العراق، وللشعب كله، تناقضه مع البرجوازية الامبريالية التي تحتل العراق الان، ومع عملائها المحليين.

نحن امام معركة غير متكافئة، مع عدو قوي، شرس وماكر. فهو يفوقنا عسكريا وماديا واعلاميا، لكننا نتفوق عليه سياسيا ومعنويا، بعدالة قضيتنا، وبكثرة انصارنا، حتى وسط شعوب الدول المعتدية، واخيرا بقدرتنا على امتلاك سلاح الوحدة. فلا خيار للعراقيين الا ان يتحدوا، لتحقيق امنيتهم في تحرير وطنهم واعادة اعماره وتطويره. وهم حين يتحدون، ستصدق توقعات الابعدين قبل الاقربين، في فشل خطط غزاة بلادنا.

وسيكون احد الابعدين (بريجينسكي)، مستشار الامن القومي الامريكي الاسبق، محقا حين قال في جريدة (السفير) الصادرة يوم 2006/8/7: «ان مقولة الولايات المتحدة سوف تحصل على عراق لين ديمقراطي، مستقر، مؤيد لامريكا ومحب لاسرائيل، هي خرافة سريعة التآكل».

* كاتب من العراق

غيض من فيض الدروس!

جواد البشيتي*

■ مبلغ جيد من المال، انتقل مباشرَة وسريعا من يد ˝حزب الله˝ إلى يد المواطن اللبناني الذي فقد البيت والأثاث. ولجعل النازحين من أبناء الجنوب والضاحية الجنوبية يعودون سريعا، ويستأنفون ما يمكنهم استئنافه من حياتهم اليومية والطبيعية، شرع ˝حزب الله˝ يبذل كل ما يستطيع بذله من جهود، ويَستجمع كل ما يستطيع استجماعه من دعم غير مشروط بتحويل نصره العسكري ـ الاستراتيجي إلى هزيمة سياسية.

لقد عرف، بالتالي، كيف يؤسِّس له وجودا، أو مزيدا من الوجود، حتى في ˝المصالح الشخصية˝ لمئات الآلاف من المواطنين اللبنانيين، فمن يجرؤ، بعد ذلك، على نزع ˝الحزب˝، وجودا، ورجالا، وسلاحا، من منطقة جنوب نهر الليطاني؟!

إذا تنازلَ ˝حزب الله˝، هنا، فلن يتنازَل إلا في أمر ليس فيه من التنازل شيئا، ويمكن ويجب فهمه على أنه أمر لـ˝الحزب˝ مصلحة فيه. وهذا ˝التنازُل˝ إنما هو الامتناع عن ˝إظهار˝ وجوده العسكري في تلك المنطقة.

وينبغي لنا أن نتذكَّر أنَّ هذا الامتناع كان من أهم الأسباب التي أدَّت إلى انتصاره العسكري. ولا شك في أن ˝الحزب˝ سيظل ملتزما هذا ˝التنازُل˝ ما قَبِلَ الجيش اللبناني وقوة ˝اليونيفيل˝ الجديدة المختلفة بقاءَ ˝الحزب˝ في تلك الحال من ˝الوجود العسكري الكامن˝ في منطقة جنوب الليطاني.

في ذاك المبلغ من المال، وما يشبهه من مبادرات، ينبغي لنا أن نقف على معنى آخر لا يقل أهمية. وهذا المعنى هو ˝إلحاق مزيد من الهزيمة في الردع الإستراتيجي الإسرائيلي˝، فعندما تقل وتتضاءل معاناة اللبنانيين يفقد ˝الردع الاستراتيجي الإسرائيلي˝ جزءا آخر من مقوِّماته ومعانيه.

لو ظل النازح نازحا، أو لو عاد من غير أن يجد مأوى أو شيئا من مقومات حياته اليومية الطبيعية، لاخترق ˝الردع الاستراتيجي الإسرائيلي˝ نفسه وإرادته.. وعقله السياسي، فـ˝روح المقاومة˝، على أهميتها، تضمر إذا ما فقدت ˝الجسد المقاوم˝، كمثل البيت والأثاث.

من أراد الحفاظ على نصره العسكري، وتوسيعه وزيادته، عليه أن يعمل دائما بحسب المبدأ الآتي: ˝النصر السياسي لم يُنْجَز بعد، وما زال، وسيظل، قيد الإنجاز˝.

إذا كان لـ˝العروبة˝ من معنى سياسي ملموس الآن، وإذا كان لها من مقياس حقيقي وموضوعي، فإن الإقرار، أولا، بأن ˝حزب الله˝ انتصر، وإسرائيل هُزِمت، والسعي، من ثَمَّ، في التعزيز السياسي لهذا الانتصار، هما ˝العروبة˝، كل العروبة، في معناها ذاك، ومقياسها هذا.

نحن ضد خطاب ˝القاعدة˝، ونهجها الإرهابي، وضد رموزها من أمثال بن لادن، والظواهري، والزرقاوي. وهذا الموقف يفقد معناه إذا لم يُتَرْجَم، ويُسْتَكمل، بالوقوف مع ˝حزب الله˝ في انتصاره العسكري، وفي سعيه إلى تحويله إلى انتصار سياسي متزايد، فَمَن لا يرى في انتصار مثال ˝حزب الله˝ هزيمة للإرهاب والإرهابيين، أيضا، إنما هو أعمى بصر، أعمى بصيرة. ولو هُزِم ˝حزب الله˝ لعادت هزيمته بمزيد من النفع والفائدة على ˝القاعدة˝ وأمثالها.

انتصاره، والحق يقال، كان مرَّ المذاق في أفواه كثيرين، منهم، على سبيل المثال لا الحصر، إسرائيل والولايات المتحدة، أنظمة الحكم العربية، واخصُّ بالذكر نظام الحكم في سورية ولو اعتقد كثيرون بخلاف ذلك، ولو أظهر هو خلاف ذلك، وقوى الرابع عشر من آذار، و˝القاعدة˝.

انتصاره، وفي معنى آخر من معانيه، كان انتصارا، يجب ألا يظل ˝مؤقتا˝، على ما جاء به ˝المثال العراقي˝ من عصبية شيعية وعصبية سنية مُدمِّرة لكل انتماء قومي عربي حقيقي، ومُفْسِدة لكل جهد يبذل في سبيل جعل الانتماء الديني الإسلامي غير متعارض مع الخيار ˝القومي ـ الديمقراطي˝ للعرب.

وأتمنى لانتصاره أن يكون تجربة مفيدة لـ˝حماس˝، و˝الجهاد الإسلامي˝، ولغيرهما من قوى المقاومة الفلسطينية، فـ˝المقاومة المجدية˝، فكرا وخطابا وعملا وأسلوبا، هي الدرس الذي ينبغي لـ˝حماس˝ تعلُّمه.. أقول ˝تعلُّمه˝ ولا أقول ˝استنساخه˝، فـ˝حزب الله˝ انتصر لأسباب استراتيجية لا وجود لها يُذْكَر في قطاع غزة والضفة الغربية.

هذا ˝النقص الاستراتيجي˝ يمكن ويجب تعويضه. وأحسب أن ˝المقاومة الفلسطينية الشعبية المنظَّمة˝، والتي يقل فيها منسوب ˝العنف العسكري˝، هي وحدها التي تستطيع أن تعطي من النتائج والتأثيرات ما أعطته بنت جبيل وعيتا الشعب.. ففيها، وبها، يصبح ذاك ˝التعويض˝ ممكنا.

* كاتب ومحلل سياسي فلسطيني ـ الاردن